المرأة العربية والترنيم بين الدراما والتنغيم " التنويمة العراقية أنموذجاً "

د. علي عبدالله

كلية العمارة والتصميم - جامعة عمان الاهلية

عمّان-الأردن

الملخص

تحتفي شعوب العالم بالمرأة ودورها في هذا الكون الرحيب فهي تسهم منذ بدء الخليقة بديمومة الحياة ودورتها، فكان لها أبلغ الأثر في كل حقل من الحقول الإنسانية؛ الثقافية منها والتربوية، لذا حمّلتها الطبيعة منذ بدء التجمعات السكانية؛ المسؤولية الرئيسة في الاهتمام بتدبير شؤون الأسرة ورعايتها، فضلاً عن المهام الكثيرة التي تقع على كاهلها.

استعانت المرأة خلال مسيرة حياتها بأنواع من الترانيم التي ترتبط بكل فعل تؤديه، بعد أن اكتشفت في ثنايا ترانيمها حلولاً ناجعة لتساؤلات عديدة تفرزها طبيعة الحياة والعصر، فكانت تبتكر طرائق تتخذ من الترنيم وسيلة فاعلة في تجاوز الكثير من المحن التي تواجهها خلال تلك المسيرة وأحداثها.

تناولت الدراسة مفهوم الترنيم لما يحمله من أهمية اجتماعية وثقافية ترتبط بحياة الفرد ومسيرته، من خلال التعرف إلى أهم مظاهر الترنيم وأصوله وأشكاله، وقد استعرض الباحث دور المرأة وعلاقتها بوليدها التي تشكل الترانيم فيها الحبل السري في تعميق أواصر تلك العلاقة وتوطيدها.

استعرضت الدراسة أبرز الترانيم التي ترتبط بحياة المرأة وطفلها، ومنها "التنويمة" بوصفها تراثاً عالمياً مارسته أغلب شعوب الأرض، واختار منها الباحث التنويمة العراقية وترانيمها التي تعايشت مع ألحانها أجيال كثيرة، حيث حلّل مضمونها وتركيبتها الموسيقية، وخلص إلى أن تلك الترانيم تعد مسؤولية أخلاقية كبيرة يجب على الأجيال التمسك بمضمونها والحفاظ على شكلها الدرامي والموسيقي.

الكلمات المفتاحية: الترنيم، التنويمة، الدراما، التنغيم.

تاريخ استلام البحث: 2013/9/8 تاريخ قبول البحث للنشر: 2013/11/26

Arabic Women Using Hymns, Drama and Toning "The Iraqi Lullaby 'Tanwima' as a Sample"

Abstract

People around the world appreciate the exceptional role of women for contributions in life right from its beginning till it ends. They have always been recognized for their outstanding impact on the cultural and educational aspects of life. Accordingly, women have the greatest responsibility of taking care of the family.

During their course of life, women have used different types of hymns and related each of them to a certain act. They found that their hymns carried solutions for every question brought up by nature and life, therefore, women have used hymns as a means of overcoming events and troubles of life.

The study tackles the concept of hymns for their social and cultural importance in individuals' lives, the issue which was explored by discussing the types and forms of hymns. The researcher deals with the hymns that linked the mother to her baby and how these hymns bonded them in many different ways.

The study reviewes the most prominent hymns that are related to the lives of women and their children, including the lullaby 'Altnwima', as a world heritage practiced by most of the people of the earth. The researcher chose the Iraqi lullaby and its hymns 'Altnwima', which has been used by many generations. He analyzed its content and composition of music and concluded that this special hymn is a moral responsibility that generations must stick to, keep its content and maintain its shape and musical drama.

Key Words : Hymns, Lullaby "Al Tanwima", Drama, Toning.

مشكلة الدراسة:

تعد الترانيم وسيلة من وسائل العيش التي اهتدى إليها الإنسان منذ الأزل لمواجهة الظروف التي تفرضها طبيعة الحياة وقسوتها، وبوصفها الحل الأمثل لمعالجة الكثير من المشاكل والأمراض النفسية، فهي تعد نوعاً من الأدوات الفاعلة التي استثمرها الإنسان على مر العصور في تذليل الصعاب وطرد الوحشة والتعبيرعن همومه واحتياجاته، فبفطرته وسجيته التلقائية استعان بها في التعبير عن دواخل النفس البشرية بكل ما يعتريها من هواجس وقلق.

حافظت الأجيال على تلك الترانيم الموروثة وتناقلتها عبر العصور بأمانة وإخلاص لتحقق من خلالها فوائد عديدة تجسدت في علاقة الأم بطفلها ضمن مراحل حياته المتنوعة التي تأخذ كل مرحلة منها طابعها الخاص، فكانت الأم تردد لوليدها ترانيم تسدُّ حاجاته المتعددة، وفضلاً عن التراث الشعبي المحفوظ في الذاكرة، كانت تسعى المرأة جاهدة لابتكار العديد من الترانيم الأخرى التي تعدها وسائل تستعين بها في تربية طفلها وتعليمه وتهذيب طباعه، وفي ترسيخ القيم ومبادئ الفضيلة وزرع خصائل المحبة وتعميقها.

وكان لترانيم التنويمة أثرها الكبير بين تلك الموروثات الأصيلة التي شاع تداولها في كل بقاع الأرض، مع وجود بعض الاختلافات في الشكل العام واتفاق في المضمون، ومن بين تلك الترانيم؛ التنويمة العراقية التي اختزنتها ذاكرة الأجيال وتربت عليها، ولدورها المؤثر في مسيرة الإنسان وذائقته؛ وجد الباحث فيها موضوعة جديرة بالدراسة.

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة إلى:

1 . التعرف إلى أهمية الترانيم وعلاقتها بالمرأة ودورها في التعامل مع متطلبات الحياة وحاجاتها.

2 . التعرف إلى شكل التنويمة عند الشعوب وأنواعها.

3 . التعرف إلى طبيعة الجانب الدرامي والتنغيمي في التنويمة وتحليل أنموذجها الشائع في المجتمع العراقي.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في:

1. إلقاء الضوء على التجارب العالمية والعربية في تعاملها مع الترانيم.

2. إلقاء الضوء على المكونات الدرامية والتنغيمية في تلك الترانيم,
3. تقديم الفائدة لدارسي تلك الظواهر التراثية والمحافظة عليها.

تحديد المصطلحات:

الترانيم: جمع ترنيمة، وهو ما يُغَنّى بصوت فيه لحن.

رنم : ر ن م: الرّنَمُ بفتحتين الصوت وقد رَنِمَ من باب طرب، وتَرَنّمَ إذا رجع صوته، وتَرَنّمَ الطائر في هديله، وترنم القوس عند الإنباض.(1)

التنغيم: هو نظام موسيقي محكم مبني على قيم إنشائية تنتظم وفق هيكلة المقامات الموسيقية المتعارف عليها. و"يحدث التنغيم من خلال التتابع المطرد لدرجات صوتية متخالفة، أي أن التغيرات التي تحدث في درجة نغمة الصوت في الكلام والحديث المتواصل، يحدث هذا الاختلاف في النغمة بسبب التذبذب في الأوتار الصوتية". (2)

التنويمة: نوع من الترنيم، تؤدى (عادة) من قبل الأم بهدف منح الطفل فرصة النوم والحصول على قسط من الراحة.

منهج الدراسة:

لأغراض هذه الدراسة اعتمد الباحث المنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي.

عينة الدراسة: اعتمد الباحث في دراسة العينة على التنويمة العراقية بوصفها أنموذجاً تعايشت معه الأجيال منذ مئات السنين.

الدراسات السابقة:

تعرفنا من خلال البحث إلى دراسة الدكتور محمد غوانمة الموسومة: "أغاني النساء في الأردن" المنشورة في المجلة الأردنية للفنون، وهي دراسة رصينة قريبة من موضوع البحث، وقد أفاد منها الباحث في رسم معالم دراسته وخصوصيتها.

تناول غوانمة في دراسته واقع الغناء العربي في الأردن، وتحديداً تلك الأغاني التي توارثتها المرأة الأردنية خلال مسيرة حياتها الحافلة بالعطاء الوفير، وأكدت الدراسة حقيقة الدور الذي تلعبه المرأة في إشاعة روح الفرح ونشر معالم السرور والبهجة في كل زمان ومكان، إذ يخلص إلى القول من أن النساء" هن أول من يعلنّ الفرح من خلال الزغاريد ... وأشكال الغناء المختلفة التي ترافق طقوس الفرح، مثل مراسيم الخطوبة والحناء،

والزفاف... وإقامة حلقات الدبكة والرقص". (3)

المقدمة

تتمثل المرأة في الحضارات الإنسانية العريقة بالتميمة التي تجلب الخير والعطاء (4)، والخزينة الكبرى التي يمكنها أن تستوعب كل ذلك الإرث الغني بتطلعات الإنسان في أفراحه المبهجة وهمومه الثقال، فهي الأم والأخت والبنت والحبيبة والزوجة، تلك المهام الجسام التي استطاعت أن تتحملها بجدارة ودون منّة، وتحملها على كاهلها لتكون الحاضنة الفاعلة للأجيال التي شهدها هذا الكون الرحيب.

تحتل المرأة العربية خصوصية متفردة في هذا الميدان **(موضوع البحث)**، فهي نتاج ظواهر وأحداث جسام شهدها الوطن العربي على مر عصوره التاريخية؛ أخذ الجانب المأساوي فيها حصته الكبرى، وبالتأكيد فإن انعكاس تداعيات ذلك الواقع لابد أن تظهر في ثقافة المجتمع وأشكاله التعبيرية، فكانت الموسيقى هي أقرب تلك الأشكال وأكثرها مقدرة على التعبير عن هموم الإنسان العربي الذي عانى وما يزال يتلقى الويلات التي يفرضها عليه موقعه الاستراتيجي الحيوي.

ولأن دور الأم هو أشرف دور للأنثى، وأسمى وظائفها، فهي الوظيفة التي خصتها الرسالات السماوية بالتمجيد والاحترام الكبيرين، وقابلتها آراء الفلاسفة الكبار في وصفها بالجليلة والحكيمة، إلا أن أعظم ما شرّف **(المرأة)** الأم هو ذلك الوصف الذي جاء على لسان نبينا الكريم **(محمد)** صلى الله عليه وسلم، في رفع قدرها ومنحها المكانة العظيمة التي تستحق، ففي الحديث النبوي الشريف: " الجنة تحت أقدام الأمهات " وصف تكريميٌ رفيع يجعل من الأم سيدة الجنة وريحانتها.

ولكونها أول معلمة للأجيال والرافد الأساس في صناعة الرجال وتكوين شخصياتهم، فقد أصبحت مضرب الأمثال في الوفاء بدورها الإنساني العظيم، حيث توافدت قصائد الشعراء الكبار في وصف مكانتها وفي مدحها، ومنها قول الشاعر **حافظ إبراهيم:**

الأمُ مدرسةٌ إذا أعددتَها أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ
الأمُ روضٌ إن تعهّدَهُ الحَيا بالريّ أورَقَ أيّما إيراق
الأمُ أستاذ الأساتِذةِ الأُلى شَغَلَت مَآثِرُهم مَدى الآفاقِ

وظيفة الترنيم عند المرأة العربية

يحتل الترنيم بشكل عام جزءاً مهماً من طبيعة المرأة وثقافتها، فهو أنيسها، وهو ركنٌ حيويٌ من مكونات ذائقتها الثقافية، ويرتبط بمفاصل اجتماعية مهمة من مراحل حياتها، فمنذ بدايات الخلق يأخذ الجانب الغريزي لعلاقة المرأة بأسرتها طابعه الذي تحكمه أواصر تلك العلاقة الحميمة، والشعور بالمسؤولية الأخلاقية التي تدفع بها إلى ابتكار الوسائل المتعددة من أجل رعاية تلك الأسرة وديمومتها.(5)

تستقي الأم ترانيمها وأسلوب أدائها من التراث الشعبي المخزون في ذاكرة الأجيال، الذي ينم عن تجارب السابقين وخبرتهم، ووفق ذلك الإرث الموسيقي يتربى الطفل على صوت أمه وغنائها المشحون بالكلمات والألحان الفطرية في عمر مبكر يتمثل بالسنوات الست الأولى من حياته التي تسبق المدرسة ودورها(6).

ويعد الترنيم أحد أهم وسائل المرأة العربية في التربية والتعليم وأكثرها تأثيراً على نشأة الطفل وتكوينه؛ لما تحمله مضامينه من حِكَمٍ ودلالاتٍ جمالية وترفيهية، فتأخذ الأم على عاتقها مهمة الغناء والترقيص وفــق أهــدافٍ مختلفة ووظائف متوارثة ومبتكرة تشكل أساس حياة الطفل في مراحله المتعــدّدة، حيث "يكون لكل منها نوع من الترنيم الذي يأتي منسجماً مع الحالة ومتطلباتها، فتبعث تلك الأهداف والوظائف النبيلة في سريرة الأم المتعــة والبهجة والرضا وهي ترى وليدها يتقدم خطوة إثر خطوة، لكي تستمر دورة الحياة بشكلها الصحيح".(7)

لقد كانت ترانيم المرأة ترجمة للواقع الحياتي المعيش، ومرايا تعكس بشكل مباشر طبيعة كل منطقة من مناطق الوطن العربي وخصوصيتها، ففي العراق "أخذ الطابع الغنائي بشكل عام سمة الشجن الشفيف الحزين بتنغيماته التي ترمز إلى حجم الأسى، وإيقاعاته المعبرة عن خبايا الوجع الإنساني ومكوناته، فجاءت خصوصية ترانيم المرأة العراقية تنم عن شكوى وحزن عميق وخوف من المجهول وأسى شفيفٍ مقرونٍ بأملٍ مبعوث.

ترانيم العمل

لقد كان للمرأة وترانيمها فعله الفاعل والمؤثر في كل حقل من حقول الحياة، ويشهد التاريخ على دورها في ميادين العمل، إذ تحتل ترانيم العمل مكانة كبيرة في حياة المرأة

العاملة، سواءً داخل البيت أم خارجه (8)، في الريف أم المدينة، لكن خصوصية الطبيعة الزراعية في الريف فرضت حصة كبيرة من ترانيم الفلاحات، وأبرزها تلك الترانيم الخاصة التي تتعلق بمرحلتيّ نثر البذور وحصاد الناتج، وسحن البذور **(الحبوب الجافة)** وطحنها.

وتأخذ كل مرحلة منها شكلها التنغيمي المناسب للفعل ودوره، إذ تمتاز ترانيم نثر البذور بإيقاعاتها المتفائلة المسترسلة التي يغلب عليها طابع منظم ينسجم مع النسق الذي تتخذه طبيعة الحركة الأفقية لأداء ذلك الغرض الرتيب، فتأتي إيقاعات الغناء لتكسر مللَه بأنغامها المتآلفة والمتآنسة مع تداعيات لوعة الفلاحات المشرقات مع شمس الحقول ليتفاعل مع وهجها ذلك الغناء المفعم بالدفء فيسهم في تنظيم إيقاع العمل ويخفف من وطأته.

وعندما يحل موسم الحصاد تتنوع الترانيم وتأخذ شكلاً تنغيمياً وإيقاعياً مغايراً تماماً، إذ يغلب عليها طابع مشحون بمشاعر الفرح والبهجة التي تحكم العلاقة الأزلية بين الفلاح وأرضه في كل ما يتحلى به من صبر وانتظار وروّية، فعلى مدار الحول يبقى متأملاً رؤية نتائج عمله وجهده المضني، حامداً وشاكراً لكل ما يدرُّ عليه الله سبحانه وتعالى من نعم الخير الوفير.

تنطلق الأنغام في مواسم الحصاد مفرحة ذات إيقاعات تنشيطية متناسقة في تفاعلها مع الحدث، فتبهج الروح وتحرر الجسد من سطوة الرتابة والملل، وتحيل نتائج الصبر والانتظار إلى واحة مليئة بالسعادة والتفاؤل بقوادم الأيام، وبذلك تسهم في تعميق مفهوم الجهد الإنساني المفعم بالأمل والإيمان بالعمل ونتائجه.

وثمة ترانيم غير محددة **(النص)** ترددها المرأة أثناء العمل مع الرحى **(المجرشة أو الجاروشة)** ماتزال عالقة في مخيلتنا لما تحمله من لوعة وحزن يتجانس مع إيقاع حركة الرحى في دورانها البطيء الرتيب، حيث تبوح الأنثى بهمومها لتلك الآلة الحجرية الثقيلة فتطحن مع الحبوب الجافة أوجاعها.

ترانيم الطفولة

تتكون دورة حياة الطفل في مرحلته المبكرة من احتياجات أولوية ثلاثة يمكن تلخيصها في الآتي: **(الغذاء، اللعب، النوم)**، من هنا يأتي تعامل الأم مع طفلها ورعايته، فهو

ينشأ مع ترانيم متنوعة تتوزع بين التحفيز والتشجيع والتربية، فلتحفيز طفلها في سد حاجته الغذائية تُقرن الأم عملية الرضاعة بترانيم خاصة تساعده على أخذ الكمية الغذائية المناسبة، لينمو معافى وينعم بصحة جيدة.

وتحقيقاً لرغبة الطفل وحاجته للمرح واللعب تقوم بترقيصه وفق ترانيم مقرونة بإيقاعات مفرحة تمنحه الفرصة في تفريغ طاقاته، ولسد حاجته الثالثة تأتي التنويمة **(موضوعة البحث التي ستتناولها الدراسة لاحقاً)** التي تحمل طابعاً مغايراً في إيقاعات الترنيمة وتنغيمات أشعارها.

وثمة أغانٍ متعددة ارتبطت بأهم مراحل الطفولة وتكوينها، فبعضها ترانيم تربوية وتعليمية تدفع الطفل الصغير وتحثه على السير بخطواته الأولى، وعادة ترافق تلك الترانيم ترقيصات تعتمد الإيقاع ركناً مهماً وفاعلاً في تحفيز قدرات الطفل وتطوير مهاراته ليمضي قدماً في مشوار الحياة الطويل.

وبعضها الآخر تتمثل بترانيم اللعب والمرح، وفي ذلك اختلاف جوهري؛ فلترانيم البنات وألعابهن طابع خاص يحمل مفردات وأنغام تتعلق بكل نوع من تلك الألعاب، فضلاً عن الأنواع الأخرى المرافقة للمناسبات والمعبرة عنها، حيث يأخذ الغناء فيها أشكالاً متنوعة تتناسب مع طبيعة تلك المناسبات وخصوصيتها.

إن طبيعة المرأة في حبها للطفل ورعايته، هي الغريزة التي جعلتها تعي بشكل فطري ذلك الدور الذي تلعبه الترنيمة في الكثير من المهام والمسؤوليات التي تقع على عاتقها وتذلل من صعوبات حياتها، فلقد منحها الله سبحانه وتعالى طاقة جبارة تعينها على تحمل كل ذلك العبء المضني الذي تقابله بمحبة ورحابة بال لا نظير لها، بل يدفعها ذلك الحب إلى مزيد من التروي في البحث عن الحلول الابتكارية لمشاكل الأسرة ومعالجتها.

ترانيم البنات

تميزت حياة الأنثى بنوع من الترانيم التي ترافقها في طفولتها وتتطور أشكالها ووظائفها على امتداد مسيرة حياتها، فتأخذ كل محطة من محطاتها العمرية أنماطاً متنوعة من الترنيم تعبر عن مضمون تلك المرحلة وطبيعتها؛ بدءاً من الترانيم التي ترتبط بالمرحلة

المبكرة، ثم ترانيم مرحلة الصبا، وصولاً إلى مرحلة الأمومة، وهكذا تعيد الحياة دورتها واستمرار نبضها مع كل أنثى مولودة تستقبل الدنيا لتأخذ نصيبها مما يقدره الله سبحانه وتعالى ويكتبه على جبينها.

تحولت بعض تلك الترانيم عند أغلب شعوب الأرض إلى أغانٍ شائعة، وأعمال درامية متنوعة، وألعاب مقننة، تهذبت وتطورت مع تطور الإنسان وأدواته، وأصبحت بمرور الزمن تحمل طابعها الخاص الذي يرتبط بحالة معينة أو غرض محدد، وشكلت في مجملها موروثاً شعبياً وتراثاً تنغيمياً يمثل الفتاة وشخصيتها في المجتمع المتغيّر وثقافاته.

تحفل تلك الموروثات الشعبية بأنواع متعددة الأغراض من الترانيم البنّاتيّة، بعضها تحمل في تركيبتها مكونات درامية نثرها التراث الشعبي في بقاع الأرض العربية لتكون شاهدة على ذائقة تعبيرية وجمالية مميزة، ففي كل منطقة توجد أنواع ممّا ذكرنا بما فيها العراق حيث تقف في مقدمتها حكاية الأغنية الحوارية **(هيله يارمانه)** لما تتضمنه من عناصر ومكونات درامية تشكل حركة الرقص والحوار فيها العمود الأساس. (9)

لكن ثمة عمل موسيقي/ درامي موروث يثير فضولنا لما يتضمنه من مكونات مختلفة في أسلوب الأداء الذي يتطلب المحافظة على مضمون الحكاية الرئيس: التمثيل وتقمص الشخصيات، والحوار، والأزياء، والرقص، والغناء مع مراعاة الزمان والمكان.

ففي الحكاية **(الفلكلورية)** التي تتغنى بها الفتيات في فلسطين حيث تبدأ بوقوفهن صفاً واحداً خلف فتاة معينة يتم اختيارها من قبلهن لما تتمتع به من وعي وإدراك يفترض أن يكون واضحاً في شخصيتها، لأنها ستتقمص دور الأم، تقابلها فتاة أخرى قوية الشخصية لتتمكن من تمثيل شخصية الرجل الذي يقوم باختطاف إحدى الفتيات من المجموعة، أما الشخصية الثالثة فتؤديّها أصغر الفتيات بالمجموعة التي تأخذ صفات البنت **(المدللة)** وتمثلها.

تدور الأحداث في مكان مفتوح، في وضح النهار، حيث تبدأ الحكاية من خلال الحوار الراقص الذي يدور بين الأم في دفاعها عن بناتها وبين الرجل المحتال، للحيلولة دون نجاح عملية الاختطاف لبناتها، وبالأخص تلك البنت **(المدللة)** التي تمثل ذروة الحدث في نسيج الحكاية ونتائجها.

تأخذ شخصية البنت **(المدللة)** مكانها خلف الأم مباشرة؛ متمسكة بها تمسكاً شديداً تعبر فيه عن حيرتها في ثقتها بوجود الأم والقلق من المجهول، وفي الوقت الذي تتراقص فيه الأم مع إيقاع الأغنية فاتحة يديها يساراً ويميناً لتشكل بهذه الحركة نوعاً من أساليب الدفاع والحماية؛ تحافظ البنات على انتظامهن في صف واحد.

وهكذا يتكرر المشهد ضمن سياق الحكاية وحركتها حتى ينجح الرجل من اختطاف جميع الفتيات واحدة تلو الأخرى ما عدا البنت المدللة، عندها يلجأ للحيلة والغدر، حيث يبدأ بمراقبة تحركات الأم وينتهز فرصة غيابها عن البيت وتواجدها في السوق ليقوم بتنفيذ مأربه، وبهذا الحدث يتحقق المشهد الأول من الحكاية.

يبدأ المشهد الثاني بعد أن تعلم الأم بتلك المستجدات، فتقوم باتباع أسلوب التحايل في تغيير ملامحها وارتداء أزياء بائعة متجولة لأدوات الزينة **(الحلق والأساور)** التي تستهوي الفتيات، وتذهب لبيت الخاطف الذي يضطر نتيجة إلحاح البنات في الموافقة على الشراء منها، وفي أثناء إخراج أيادي الفتيات من فتحة الباب، تقوم الأم بتحسسها يداً بعد أخرى للتأكد منهن، حتى يحالفها الحظ في النتيجة النهائية بإعادتهن إلى حضنها، وبذلك تنتهي الحكاية نهاية سعيدة يفرح بها الجميع.

النص والشخوص: المشهد الأول:

الرجل: هون ضايعلي طاسه حمره

بلاقيها وما بلاقيها...

الأم: ان شاء الله ما بتلاقيها

المجموعة: إن شاء الله ما بتلاقيها

الرجل: بدي اقشقش حطباتي

الأم: بخاف على وليداتي

الرجل: أنا أبوهن كلهن

الأم: أنا أمنّ بحميهن

ثم يتراقص الأب حتى يتمكن من اختطاف إحداهن، ومع تكرار المشهد يتحقق مراده من خطف جميع البنات.

المشهد الثاني:

البائعة: حلق حلق مين بدو حلق؟

وتنطلق أصوات البنات نريد شراء الحلق.(10)

ترنيمة التنويمة

تعدُ التنويمة نوعاً من الترنيم الذي يهدف إلى منح الطفل فرصة النوم التي يحتاجها جسده الغض، حيث تأخذ في تركيبتها الفنية شكلاً أدائياً خاصاً يختلف من مكان إلى آخر نتيجة عوامل كثيرة يكون للجوانب الاجتماعية والبيئية والاقتصادية وغيرها من المتغيرات؛ دورها الكبير في رسم معالم شكلها العام وتركيبتها النغمية والإيقاعية.

وعلى الرغم من الاختلاف في أنواع وأشكال ترانيم الأمهات عند أغلب الشعوب، فإننا نستطيع التعرف إلى القواسم المشتركة بينها، فمن الناحية الأدبية تتكون تلك الترانيم الموروثة من مقاطع شعرية بسيطة التركيب، ومن الناحية الموسيقية تأتي صياغة جملها الموسيقية قصيرة ومسترسلة ومحدودة الألحان، تتبع في أسلوب أدائها شكل **Intervals**(11) الانتقالات المتسلسلة؛ فتتشارك مع الجمل الشعرية بتلقائيتها بحيث تستطيع أي امرأة أن تقوم بأدائها دون عناء يُذكر.

وتؤكد تجارب الشعوب أن معظم الترنيمات المتعلقة بالتنويمة تنطلق من حكاية مثيرة للعواطف، وترتكز في مطلعها على مفردة لفظية رنانة تشبه الصدى؛ تشكل لازمة بسيطة تساعد على توفير مناخ يسمح بالنوم الهادئ، فتكون في الإيطالية، على سبيل المثال **(Nanna-Ninna)**، وفي البرتغالية والإسبانية **(Nana Nana)**، وفي اللاتينية **(Iya- Iya)** وفي الألمانية **(ليا بو بيا ــ Lya po pya)**، وفي اللغة الروسية **(بايو باي ــ Bayou By)**.

ويمكن ملاحظة التشابه بين الترانيم في بعض اللغات، فعلى سبيل المثال، يأتي تقارب العربية والعبرية في استخدام مفردة **(نم، ونومي)**، وذلك لجذر اللغتين المشترك، ولنفس السبب تقارب الترنيمة الإنجليزية **(Lulla Lulla)** مع الترنيمة الكردية**(لايه لايه)**، فليس غريبا أن يذهب العلامة البريطاني **(L .A. Waddell)** (12) ، إلى أن خمسين بالمئة من المفردات الإنجليزية ترجع في أصولها إلى اللغة السومرية. (13)

لقد كانت ترنيمة التنويمة حاضرة في مخيلة الشعراء العالميين الكبار، حيث اقتبس بعضهم تلك الترانيم التي تقال على لسان الأم، ونذكر منهم، على سبيل المثال، ترنيمتيّ الشاعرين **(يوهان فردريك ريتشارد)**، و**(لوركا** ــ Federico García Lorca):

1ــ ترنيمة للشاعر (يوهان فردريك ريتشارد):

نم ياطفلي
نم ياطفلي واغمض عينيك
بكاؤك يمزق قلبي
نم ياطفلي
أمك المسكينة لديها مايكفيها من الأحزان
أبوك غمرني بحنانه
نال ثقتي
وفاز بقلبي
بريئا وطيبا كان يبدو مثلك
وثقت به
أين وعوده اليوم؟
نساني ونسى طفله
نم يابني

2- ترنيمة مهد اشبيلية
للشاعر (لوركا ــ Lorca)

السلحفاة الصغيرة يتيمة
لا أم لها
حملتها أم غجرية
ثم لفظتها
هذا الولد الصغير
لايملك مهدا
أبوه نجار

سيصنع له مهداً. (14)

وحظيت التنويمة بمكانة مهمة في حياة الأم العربية فكانت تردد ترانيمها بتقاربات لفظية كثيرة وتنغيمات متنوعة، قد تختلف من قطر عربي إلى آخر بمفردة بسيطة، لكنها تتفق في المضمون وهدفه، منها على سبيل المثال:

في مصر:

نينا نام ... نينا نام

وأدبحلك.. جوزين حمام

وفي سوريا:

نام .. يبني .. نام لادبحلك طير الحمام

ياحمام لاتصدق عم كذب على ابني حتى ينام

وفي الأردن:

نام يبني نام لاذبحلك طير الحمام

ياحمام لاتخافي بضحك على ابني تينام

في السودان تردد الأم:

النوم النوم بكريك بالدوم (15)

النوم النوم دومتين حلوت

دومتين مرات في البحر عايمات

ماشات مقرات

النوم النوم بكريك بالدوم

في لبنان:

نم نم نم .. يازغير نام نيمتو ماكان ينام

نام الله يا عيني ابني ياعنب زيني

يلا يلا يادايم .. تحفظ عبدك النايم

تحفظ عبدك وتجبيره.. وتخليه نايم بسريره

في تونس:

ننـي ننـي جاك نعاس أمك فضا وبوك نحاس

ننـي ننـي جاك النوم أمك قمره وبوك نجوم

وفي العراق:

دلل لول ... دلل لول (16)

يالولد يابني دلل لول

من خلال البحث بين تلك الترانيم المتعلقة بالتنويمة، وجدنا أن ثمة عامل مشترك يجمع بينها؛ وهو الحزن الشفيف، باستثناء ترنيمة المرأة الفلسطينية حيث يأتي مضمونها متفائلاً وأنيقاً على الرغم من حجم الويلات والمآسي التي تعيشها، فيعكس أداء صوتها الهادئ الممتلئ حنيناً وشجن حكاية تلك الترنيمة الإنسانية ودورها التفاؤلي في إتاحة الفرصة للحياة المستقبلية الرغيدة التي تتمناها لأولادها:

هللي له ياحمامه هللي له لينام

هللي له ياحمامه هللي له لينام

وافرشيلوا الريش الأخضر والوساید ريش نعام

التنويمة العراقية:

شكل فني: يُؤَدى بطريقة فردية من قبل الأم ويكون مصحوبا بالحركة التي ترتبط بوجود المهد الذي يكون، على الأغلب، مصنوعا من الخشب.

المكان: داخل البيت

الزمان: ليس محدداً إذ ترتبط أحداث التنويمة بالوقت الذي يحتاج فيه الطفل إلى الراحة والسكينة.

النص: متفق عليه.

لحن الترنيمة: شائع بأدائه المبني على سلم مقام الحجاز.

إيقاع الترنيمة: الوحدة الكبيرة.

مصادر التنويمة: يأتي مصدرها الأساس من تناقل الأجيال (من البنات) لهذا الإرث، حيث تتشرب الأنثى بذلك النغم الحميم الذي يبوح به قلب الأم قبل صوتها وهي

تهدهد طفلها بنغم يبعث على طمأنينته ويهدئ من روعه ليُسَرّبَ إلى ذلك الجسد اليافع خدَراً يبدأ من مخيلته الغضة البسيطة، فيمهد إلى نوم هادئ يمنحه فرصة للراحة واستعادة النشاط ليبدأ مع صحوة جديدة بمهام أخرى جديدة .

دلل لول .. دلل لول
دلل لول .. دلل لول
يالولد يبني دل لول
عدوك عليل وساكن (الجول) (17)

التدوين الموسيقي:

Allegretto-Scherzo
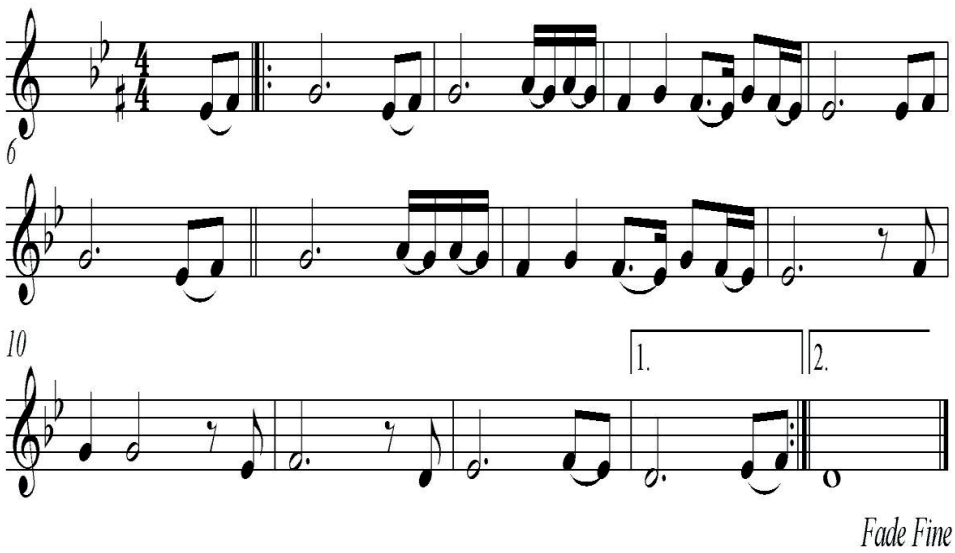
الشكل العام

يبدأ فعل الترنيمة من طبيعة المكان وأجوائه، ويكون الزمان فيه غير محدد، إذ يرتبط الفعل بحاجة الطفل إلى الراحة والسكينة، ويخيم الصمت على أجواء المكان بعد أن تقوم الأم بتهيئة كل الوسائل التي تبعث على الراحة والهدوء بما فيها من أضواء خافتة.

وبعد أن تضع طفلها في مهده الذي تعده لهذا الغرض، تطلق صوتها بشكل انسيابي يتسم بهدوء عاطفي شجيّ، فتستنطق تلك الكلمات البسيطة بحنين أخاذ يتوافق نبضه الإيقاعي الرزين مع تحريك المهد رواحاً ومجيئةً، وتقوم بتكرار هذا الفعل حتى يخلد طفلها ليهنأ في نومه، عندها تطمئن الأم على راحته وهو الهدف الذي تنشده من التنويمة وأدائها (18).

ومع مرور الأيام يتعود الطفل على صوت الأم المعبر، فترتبط ترنيمتها هذه مع مرحلة النوم التي تشكل الجزء الأهم من يوميات العلاقة بين الطفل وأمه، ولاتحتاج الأم في هذا الأداء إلى براعة فنية، فحنينها وصدق تعبيرها يغلب أساليب الأداء الغنائي المتقن.

يتركب البناء الإيقاعـــــي في التنويمة من الزمن (4/4)، ويحافظ النسيج اللحني على بنائه من سلم مقام (**الحجاز**) بدءاً من التمهيد وحتى الختام دون أي تحولات نغمية أو إيقاعية، أما طبقة الأداء فتنطلق بشكل تلقائي تفرضه طبيعة الأجواء النفسية للأم والعرف الصوتي في لحظة الأداء الأولى.

ولكسر رتابة اللحن نتيجة الاستمرار في تكراره، تعمد بعض النساء إلى الاستعانة بنوع من الترنيم الارتجالي في اللحن والكلام يطلق عليه (**النعي**) (19)، ويشكل هذا النوع من الترنيم، من ناحية أخرى، فرصة تنتهزها المرأة في بث همومها الذاتية وشكواها.

تبدأ المرأة بـــ (**النعي**) حال انتهاء اللحن الأساس للتنويمة، وبعد أن تُشبع رغبتها في الأداء المستمر مع حركة المهد وصوت صريره، ترجع إلى بدايات الترنيمة، وتستمر في هذه الحالة حتى تتأكد من أن سحر التنويمة قد حقق مبتغاه، وغط طفلها في نوم عميق.

ينتمي اللحن إلى الموروث الشعبي (الفطري) (20) والمتناقل عبر الأجيال الأصيلة التي حافظت عليه من الضياع والتلف أو التخريب بوصفه أمانة وطنية مقدسة يتوجب التمسك بها وصيانتها، دون أن ينسب النص أو اللحن أو شكل الأداء العام إلى شخص معين أو جهة معينة أو مكان أو تاريخ محددين، لذلك تعد هذه الترنيمة نتاجاً شعبياً،

يغلب على شكله الفني طابع العموم والتلقائية (21).

إن طبيعة الأداء الفطري الذي تتصف به المرأة العراقية بكل ما يختزنه من حزن دفين ولوعة وشكوى في النص الشعري وموسيقاه، تلك المكونات التي تنتهجها الأم أثناء رعاية الطفل وفي تلبية احتياجاته الأساسية ومنها على سبيل المثال، الرضاعة والنوم، فهو ينمو ويترعرع ضمن مناخ درامي مشحون بأنغام الحزن العميق والأسى الشفيف.

نعتقد بأن كل تلك الأجواء وغيرها من العوامل الأخرى تنعكس تأثيراتها، بشكل حتمي، على مكونات الشخصية العراقية وتركيبتها التي نجدها تتآلف وتنسجم بسرعة هائلة مع كل مظاهر الحزن وأشكاله، إن هذا النمط السلوكي في الترنيم نُعِدُهُ أحد الأسباب الرئيسة التي تدخل في طبيعة هيكلة الألحان العراقية وبنيتها، وهو العامل المؤثر الذي يتصف به أسلوب الغناء العراقي وأدائه .(22)

النتائج:

أسفرت الدراسة عن النتائج الآتية:

. حافظت الأجيال على التنويمة بوصفها إرثاً شعبياً.

. تغلب على التنويمة سمة الحزن الشفيف، ماعدا التنويمة الفلسطينية فهي تحمل في مضمونها صفات التفاؤل والأمل.

. لا يحتاج أداء المرأة للترانيم اعتماد الأساليب المتعارف عليها في مفاهيم الغناء الأكاديمي **(المتقن)**.

. يكون لأداء الترنيمة الحزين انعكاسه على طبيعة الإنسان وشخصيته.

الاستنتاجات:

في ضوء النتائج توصلت الدراسة إلى الاستنتاجات الآتية:

. استطاع الموروث الشعبي أن يثبت جدارته رغم استعاضة بعضهم بوسائل العصر وتقنياته.

. وُظّفَت الموروثات الشعبية ومنها لحن التنويمة العراقية بتركيبة العديد من المؤلفات الموسيقية الغنائية والدرامية المتنوعة.

. مايزال الأطفال يتلذذون بترانيم التنويمة.

الهوامش والتعليقات

1 ــ الجواهري، 1984، ص 1038.

2 ــ مصطفى وزملاؤه، ب ــ ت، ص 312.

3 ــ غوانمة، 2009، ص2.

4 ــ بلغت مكانة المرأة (الأم) في الحضارات القديمة مكانة رفيعة وثقتها اللقى الآثارية بدلائل مقرونة على قدسية تلك المكانة وهيبتها، ففي حضارة وادي الرافدين، على سبيل المثال، كانت تصنع تماثيل فخارية يطلق عليها **(تماثيل الآلهة الأم** ــ Mother of the Gods)، وإيماناً منهم برمزيتها في الأمومة والخصوبة والنماء؛ يقومون بدفنها في الأرض لتجلب الخير والعطاء.

5 ــ ينظر: عكاشة، 2006، ص112ـــ113.

6 ــ عندما ينتقل الطفل إلى مرحلة المدرسة يختلف الأمر فيها كثيراً، إذ يدخل الغناء في نطاق التعــليم الأكاديمي كما في الأناشيد الوطنية والمدرسية وغيرها من أشكال الغناء التربوي بحسب طبيعة ومستوى الاهتمام بهذا الحقل التربوي المؤثر في نشأة الأجيال؛ نشأة اجتماعية ووطنية صحيحة.

ففي هذه المرحلة **(التي تؤسس عالمه الثاني)** يبدأ الطفل محطة جديدة من محطات التلقي؛ فاختلاطه بأقرانه من الأطفال الآخرين يمنحه الفرصة للتعرف عن كثب إلى جوانب حياتية مختلفة رغم تقاربها، على الأغلب، إلا أنها تضيف في مجملها تدرجاً معرفياً يغذي ثقافة الطفل البدائية المتعطشة إلى أولويات المعرفة، فيتعــرف على مستوى ذائقة زملائه ومعــلميه التي قــد تختلف قليلاً أو كثيراً عن ذائقة الأسرة عالمه الأول التي تشكل مكونات شخصيته.

7 ــ بن موسى، 1983، ص3.

8 ــ يكاد لايخلو أي عمل منزلي من ترانيم ترددها المرأة أثناء قيامها بكل عمل من أعمالها اليومية، فتسلّي بها روحها وتُبعِدُ الملل والرتابة عن نفسها، ينعكس إيقاع الترانيم وجمال تنغيماتها على تنظيم العمل الذي غالباً ما تكون نتائجه مُرضِيةً ومُتقنة.

9 ــ ينظر: قدوري، 1980، ص118.

10 ــ ينظر: الباش، 1997، ص 170.

11 ــ (Intervals): مصطلح يستخدم في لغة الموسيقى يعني الأبعاد الموسيقية أو المسافات الموسيقية، ويقصد منه تحديداً؛ الفرق بين نغمتين متتاليتين أو غير متتاليتين، صعوداً أو هبوطاً، وهوفرقٌ تدرُكه الأذنُ، ويدخل في تركيب سلم من السلالم الموسيقية، وتعدُ من أبرز سمات التراث الموسيقي الذي اعتمدته ألحان الموسيقى العربية في تركيبتها.(للمزيد، ينظر: دانهاوزر، ب ــ ت، ص52).

12 ــ أشارت الدراسات إلى وجود علاقات لغوية وثيقة بين اللغة السومرية وأسرة اللغات الآرية، ومن تلك الدراسات ما توصل إليه العلامة البريطاني **(ويدل ــ L .A. Waddell)**، في دراسته اللغوية التي أجراها حول موضوع تلك العلاقة، حيث توصل إلى أن أكثر من خمسين بالمئة من الكلمات الانجليزية تعود في جذورها إلى اللغة السومرية. (ينظر: الموقع الإلكتروني www. al- masrah.com)

13 ــ ينظر: رشيد، 2006، ص 117ــ118.

14 ــ الموقع الإلكتروني: Muayed1@maktoob.com.

15 ــ الدوم: نوع من الأشجار النخلية تنمو وتكثر في السودان وأجزاء متعددة من أفريقيا، ثماره صلبة وتكون في حجم التفاحة تقريبا، طعمه شبيه بطعم الخروب.

16 ــ تشترك مفردة **(دلل لول)** التي المتداولة في وسط العراق وجنوبه مع جذر الكلمة الكردية دل، وتعني القلب، ودخلت كلمة دل في الغناء العراقي العربي بشكل واسع ، ففي المقامات العراقية تتردد كلمة دلم – قلبي– في افتتاحية المقام – التحرير – ويحدث فيها احيانا تحوير ملائم للمقام أو الغناء مثل دلي دلي

17ــ **(الجول):** كلمة محلية تعني في اللهجة العامية العراقية، البرّية، أو الصحراء الجرداء، وقد تفسر العبارة رغبة الأم بتطمين نفسها وطفلها بأنهما في أمان وأن الأعداء بعيدون عنهما.

18 ــ يصادف في بعض الأحيان أن تشعر المرأة بانسجام كبير مع الترنيم يصل بها إلى ذرف الدموع، وقد يصيبها الطرب إلى حد البكاء، وفي الغالب يمر في تلك الحالة بعض الأطفال، ومنهم إحدى حفيداتي التي ما إن تبدأ أمها بالترنيم حتى تجهش بالبكاء الشديد.

19ــ **النعي:** على الرغم من كونه نوعاً من الترنيم الحزين، فإنه لايأتي هنا بقصد نعي الميت، ولا يدخل ضمن مفهوم الرثاء، بل هو شكل من أشكال الترنيم النسائي الحر، عرفته المرأة منذ الحضارة السومرية، واستمر متوارثاً حتى يومنا هذا، ويرى الباحث الدكتور فوزي رشيد " بأن النصوص السومرية قد عرفتنا على نوع من الألحان السومرية الحزينة الذي اختصت بها النساء وهو يشبه إلى حد كبير أداء النساء في أيامنا الحالية، وكانت تدعى المرأة التي تجيد هذا النوع من الألحان باللغة السومرية **(أمارا)** وفي اللغة الأكدية **(أم وبي كأتي)** وتعني حرفياً أم البكاء". (رشيد، 1970، ص21)

20 ــ جرت محاولات عديدة في مجال استلهام لحن الترنيمة وإعدادها في بناءات لحنية جديدة تتناغم مع روح العصر من قبل مؤلفين موسيقيين وملحنين وشعراء كثيرين، وكانت تشكل في مجملها تجارب فنية أضفت طابعاً عصرياً على الموسيقى والألحان المستنبطة من التراث الشعبي، كما تم توظيف التنويمة في العديد من الأعمال المسرحية والتلفزيونية، فضلاً عن استثمارها في الأفلام السينمائية والدراما الإذاعية.

21 ــ استعاض بعضهم عن التنويمة بوسائل صوتية معاصرة، كالموسيقى الهادئة والمؤثرات، لكن اللافت للنظر أن الموروث الشعبي للتنويمة ما يزال ينتشر ويشيع بين الأجيال الجديدة للأسباب التي تم ذكرها في متن الدراسة.

22 ــ يرى العلامة **(الدكتور طه باقر)** أن " معاناة الإنسان العراقي وتأصل الحزن لديه يعود إلى رواية الخلق البابلية فأحوال العراق القديم الجغرافية في بداية ظهور أولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها منذ الطوفان كان هنالك صراع بين الإنسان والطبيعة وأبرزها مشكلة الفيضانات السنوية التي لا تبقي ولا تذر". (باقر، 1956، ص 68)

وكما هو معروف فإن أول تراجيديا كانت على أرض العراق هي تراجيديا ملحمة جلجامش وانكيدو، ثم أسطورة تموز وعشتار،حيث شكل كل من هذين النصين الأدبيين علامات فارقة في تكوين الثقافة العراقية القديمة التي ارتبطت بالحزن وعدته أحد عوامل سموها الروحي وتجلياته.

المراجع:

– باقر، طه، حضارة العراق القديم، بغداد، مطابع وزارة الإرشاد، 1958.
– الباش، حسن، الأغنية الشعبية الفلسطينية، ط2، دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 1979.
– بن موسى، عبد الحميد، نظرة أولية حول البرامج والمناهج التعليمية في التربية الموسيقية، دراسة مقدمة إلى المؤتمر الثامن للمجمع العربي للموسيقى الذي عقد في بغداد من 3ــ9، فبراير/شباط،1983.
– الجواهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح،ج5، ط3، دار العلم للملايين، بيروت 1984 1038.
– دانهاوزر، أدولف، نظرية الموسيقى،ترجمة محمد رشاد بدران، مكتبة نهضة مصر،(ب، ت).
– مصطفى، إبراهيم وزملاؤه، المعجم الوسيط، ج3، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، استانبول، تركيا، (ب، ت).
– سرحان، نمر، أغانينا الشعبية في الضفة الغربية والأردن، منشورات دائرة الثقافة والفنون، وزارة الثقافة والإعلام، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ــ الأردن، 1968.
– عكاشة، ثروت، المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، 2006.
– قدوري، حسين لعب وأغاني الأطفال في العراق، ج1، مطابع دار الشؤون الثقافية، بغداد 1980.
– رشيد، فوزي، الغناء في العراق القديم، مطابع مكتبة الرشيد، بغداد، 1970.
– رشيد، صبحي أنور، تاريخ العراق القديم، ج1، المانيا الإتحادية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام، 2006.
– غوانمة، محمد، أغاني النساء في الأردن، المجلة الأردنية للفنون، المجلد (2)، العدد (1)2009، جامعة اليرموك/ إربد.
– الخبرة الميدانية من خلال المعايشة الشخصية.

– **الموقعان الإلكترونيان:**

- www. al- masrah.com
- Muayed1@maktoob.com